تداولية الإشارة عند نزار قباني
(قصيدة منشورات فدائية على جدران إسرائيل أنموذجًا)

دكتور/ ضيف عبد المنعم الفرجاني
الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية
كلية الآداب – جامعة المنيا

يقوم البحث التداولي على عدة مفاهيم لدراسة الظواهر اللغوية ومن بين هذه المفاهيم توجد الإشاريات، وهي علامات لغوية لا يتحدد مرجعها إلا في سياق الخطاب التداولي، لأنها خالية من أي معنى في ذاتها، فبالرغم من ارتباطها بمرجع، إلا أنه مرجع غير ثابت، فدورها في السياق التداولي لا يقف عند الظاهر منها بل يتجاوز إلى نمط آخر منها هو مستقر في بنية الخطاب العميقة عند التلفظ، مما يعطيها دور تداولي في استراتيجية الخطاب، لأن حدوث التلفظ من ذات المتكلم يكون بسمات معينة، أي في حيز الزمان والمكان.

الإشاريات لغة واصطلاحًا:

المعنى اللغوي للإشاريات :

جاء في لسان العرب لابن منظور عدة معاني لمادة(شور):" وَأَشَارَ عَلَيْهِ بِأَمْرٍ كَذَا: أَمَرَهُ بِهِ وَأَشَارَ الرَّجُلُ يُشِيرُ إِشَارَةً، إِذْ أَوْمَأَ بِيَدَيه وَيُقَالُ : شَوَرْتُ إِلَيْه بِيَدي، وأَشَرْتُ إِلَيهِ أَيْ لَوَّحْتُ إِلَيْهِ وأَلَحْتُ أَيْضَا ...، وَأَشَارَ يُشِيرُ إِذَا مَا وَّجَهَ الرَّأْيُ"[1]، وردت في معجم مقاييس اللغة " (شور)، أصلان مطردان، الأول منهما إبداء شيء وإظهاره وعرضه، والآخر أخذ الشيء"[2].

والإشارة هي ما يدل على أي شيء يتعين " من جهة بموضوع ويثير من جهة أخرى فكرة معينة في الذهن، ويوجد فيها القصد في التواصل، وهي حدث أو شيء يشير إلى حدث أو شيء آخر."[3]

وفي معجم اللغة العربية جاءت " أشارَ إلى / أشارَ على يُشير، أشِرْ، إشارةً، فهو مُشير، والمفعول مشار إليه :وأشار إليه بيده أو نحوها لوَّح، أومأ إليه معبِّرًا عن معنى

من المعاني كالدعوة إلى الدخول أو الخروج أو السكوت أو الاستمرار، أو غير ذلك :- أشار إليه بالسَّبّابة / بعينه، – { فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا }، وأشار إلى الانطلاق : أعطى إشارة، – يُشار إليه بالبنان : مشهور."[٤]

الإشاريات اصطلاحًا :

تعددت المصطلحات المعبرة عن الإشاريات لدى العلماء، حيث أطلق عليها (بيرس) الإشارة أو العلامة الإشارية؛ ويرجع ذلك إلى الإشارة من خلال اللغة، التي لا تقتصر على اللغة وحدها فقد تكون بأداة[٥]، ويحتاج المتكلم أن يشير إلى ما حوله من أشياء ليحددها لمخاطبة أثناء مخاطبة لأغراض متعددة، وتشمل إشارات حسية، وتتمثل بأسماء الإشارة التي تدل على مسماها، حيث يؤدي المتكلم بأحد أعضائه مشيرا بها إلى شيء بعينه للدلالة عليه."[٦]

وأشار(روبرت دي بو جراند) إلى أنها "الألفاظ الكنائية"[٧]، وأطلق عليها (الأزهر الزناد) العناصر الإحالية في اللغة، وعدها من قبيل المعوضات، واشار إلى أنها تأتي تعويضًا عن وحدات معجمية(أسماء مفردة وما يضارعها من المركبات) وهو يقصد المشار إليه أو المحيل إليه."[٨]

ويُقدم(جورج يول) تعريفًا بسيطًا لها يقول " يُمكِنُنَا تعريف الإشارة بأنَّها فِعل يستعمل فيه متكلم أو كاتب، صِيَّغًا لغوية لتمكين مُستمع أو قارئ، تحديد شيء ما"[٩]

فالإشاريات تعمل على تفسير الملفوظات، وتحديد مجالها التبليغي في الخطاب عن طريق عناصر إشارية تحتويها تلك الملفوظات داخل سياقها المادي الذي قيلت فيه، وجدير بالذكر في هذا المقام أن السياق يلعب دورًا مهما في تحليل العناصر الإشارية الخاصة بكل ملفوظ على أساس أن هناك " كلمات وتعبيرات تعتمد اعتمادًا تامًا على السياق الذي تستخدم فيه ولا يستطيع إنتاجها أو تفسيرها بمعزل عنه."[١٠]

وقد رأى (لنفنسون) أن الإشاريات " تذكير دائم للباحثين النظريين، بأن اللغات الطبيعية وضعت أساسًا للتواصل المباشر بين الناس وجها لوجه، كما تظهر أهميتها البالغة حين يغيب عنا ما تشير إليه فيسود الغموض ويستغلق الفهم"[١١]، أي أن الخطاب اللغوي ينحصر في إنتاجه على الإشاريات التي تحدد المرجع بين عناصر التخاطب(متكلم،سامع)، ويمكن تفصيل عملية التواصل بين المتخاطبين.

ويعود الفضل إلى (فندرليتش)، الذي قام بحصر صارم للعناصر المكونه للمقام، وهي[١٢]:

- المشاركون في التبليغ: المتكلمون والمستمعون.
- مكان التفاعل.
- القول(الصفات اللغوية، شبه اللغوية، وغير اللغوية)
- ترقبات: المتكلم والمستمع.
- مساهمة المشاركين في الموضوع: معارفهم اللغوية، المعايير الاجتماعية، شخصياتهم وأدوارهم.

ويرى الباحث أن الإشاريات هي علامات لغوية لا يتحدد مرجعها إلا في سياق الخطاب، لأنها خالية من أي معنى في ذاتها، ولا يقف دور الإشاريات في السياق التداولي عند الإشاريات الظاهرة، بل يتجاوزها إلى الإشاريات ذات الحضور الأقوى، وهي الإشاريات المستقرة في بنية الخطاب العميقة عند التلفظ به، وهذا ما يعطيها دورها التداولي في استراتيجية الخطاب، لأن التلفظ يحدث من ذات بسمات معينة، وفي زمان ومكان معينين.

أنواع الإشاريات :

يرى أغلب الباحثين أن الإشاريات خمسة أنواع هي " الإشاريات الشخصية، والإشاريات الزمانية، والإشاريات المكانية، والإشاريات الاجتماعية، والإشاريات الخطابية أو النصية، غير أن بعضهم اقتصر على الثلاثة الأولى فقط."[١٣]

ومن أكثرها تمثيلا : أنا، أنت، هنا، الآن، وهي عناصر تجسّد: المتحدث، والمخاطب، ومكان التخاطب وزمانه، ففي كل مرة يتحدث فيها (أنا)، فإن هذه الكلمة لا يسعها إلا الإشارة أو الإحالة على الفرد الذي قال(أنا) بهدف الحديث عن نفسه، أما العنصر الإشاري (أنت) فلا يمكنه الإشارة إلا إلى الفرد الذي خاطبه المتحدث بهدف الحديث عنه باعتباره مخاطبًا، وظرفا المكان(هنا)، والزمان(الآن)، لا يمكنهما الإشارة إلا إلى مكان وزمان، وقوع الملفوظ الذي يشكلان جزءًا منه، ينتج عن ذلك أنه من المستحيل عزو مرجع محدد، لتلك الكلمات، إذا كنا نجهل، باعتبارنا مخاطبًا أو شاهدًا مجريات العملية التخاطبية، أو عن طريق معلومات منعزلة عن عملية التبادل الخطابي وإطارها الزماني – المكاني[١٤].

ويتضح من خلال ذلك أن المتكلم –الأنا– يشكل المركز الذي نحدد من خلاله مسألة(القرب) و(البعد) بالنسبة لأطراف الخطاب، وهي المسافة الفاصلة بين المتكلم أو المخاطب من جهة، وبين المشار إليه من جهة أخرى، وهي موقع المشار إليه من المركز.

ومن أجل قراءة تداولية للخطاب الشعري عند نزار قباني[١٥] بات من الضروي أن توجد مجموعة من المعطيات السياقية، لكي نكشف عن شفرات النص الشعري، الذي يكون مغلقًا، إذا لم نربطه بالسياق الخارجي للأبيات، ومن هذه المعطيات الإشاريات، حيث تنوعت عند نزار، ما بين شخصية، وزمانية، ومكانية، وسوف يتناولها الباحث على النحو التالي:

أولا الإشاريات الشخصية :

الإشاريات الشخصية وهي بشكل عام، الإشاريات الدالة على " المتكلم، أو المخاطب، أو الغائب، كما تدخل في الإشارة إلى شخص والنداء، وتعد الأنا أو الذات المتلفظة محور التلفظ في الخطاب تداوليا، كما أن ممارسة التلفظ هي ما يدل على المرسل في البنية العميقة، مما يجعل حضور الأنا في كل خطاب، ولهذا لا ينطقها المرسل في كل حين، إذ يعول على كفاءة المرسل إليه."[١٦]

تعدُّ الإشاريات الشخصية من أهم الإشاريات اللغوية ذات البعد التداولي؛ لأن مادة الخطاب وهندسته تخضعان، إلى حد كبير، لهذه الإشاريات، وتتحدد إحالية ضمائر المتكلم والمخاطب والغائب عن طريق التجاور، والتي تقاس دائما بالمسافة التي تربط المتكلم بأناه أو بذاتيته وانطلاقا منها، فثنائية(الأنا، الآخر)/ بأشكاله المختلفة(هو، هي، أنت، أنتم، أنتن، ...) تحدد العملية التواصلية.

فالضمير(أنا) هو أكثر عنصر في القدرة على التعبير عن الذاتية في اللغة، وبالتالي التمكن من امتلاك ناصية الحديث، واكتساب السلطة بالخطاب من خلال التلفظ به، ونجد الشاعر نزار ارتبط بالقضية القومية وبوطنه الأم، وبكلِّ مقومات أصالته، وجاء عن طريق استخدام الضمير(أنا)، فيقول[١٧]:

أنا الفلسطيني
بعد رحلة الضياع والسراب
أطلع كل ليلة

من فسحة الدار.. ومن مقابض الأبواب
أطلع مِن صوت أبي..
ومن وجه أمي، الطيب، الجذاب

فنجد في المقطع السابق، استطاع نزار أن يتقمص شخصية الفلسطيني الذي اندفع من تراب شذاه عبر ضمير المتكلم المفرد(أنا)، كما يلاحظ الباحث تكرار الجذر اللغوي (طلع) سبع مرات، مرتان للجمع، وخمس مرات للمفرد، وفي استعمال المفرد أكثر تأثير على المتلقي، فكان نزار يخاطب كل غيور على فلسطين، والوطن العربي السليب على حدة.

كما يلحظ الباحث، أن معظم الإشاريات الشخصية الموجودة في قصيدة (منشورات فدائية على جدران إسرائيل)، الضميران (نحن وأنتم)، حيث يشير بالضمير (نحن) إلى الإنسان العربي، ويشير بالضمير (أنتم) إلى اليهود ومعاونيهم الذين يحاولون الإيقاع بالعالم العربي.

وجاء استعمال الضميران(نحن وأنتم) عند نزار، نتيجة العداء ما بين العرب وإسرائيل، وهذا العداء انبثق من عوامل دينية، وتاريخية، فيستخدم الشاعر الضمير(نحن) لكي يعمل على يقظة العرب، بعد أن شَعَرَ بالخنوع والهوان لديهم، وأراد نزار من استعمال هذا الضمير، تحويل الخطاب إلى قوة لا تقاوم، قادرة على التحدي، فيقول[١٨]:

لَنْ تَجْعَلُوا مِنْ شَعْبِنَا
شَعْبَ هُنُودٍ حُمْرْ
فَنَحْنُ بَاقُونَ هُنَا
في هذه الأرضِ التي تلبسُ في مِعْصَمِهَا
اسورة من زهر
فهذه بلادنا
فيها وجدنا منذ فجر العمر
فيها لعبنا.. وَعَشِقْنَا

ومَن يمعن النظر في هذا المقطع يلحظ، مجيء (نحن) في ثنايا الخطاب بصيغة التهديد والوعيد، فاستخدام الشاعر للضمير (نحن)، دليل قاطع على حضور الطرف

الآخر في ذهنه، كما جمع الشاعر بين (الأنا والأنتم) لدلالة التعاون بينهم، وهو ما يظهر في تأويل الخطاب باطنيًا، ويعود استعمال الشاعر الضمير(نحن) إلى اهتمامه بالمرسل إليه، حيث يؤكد فيه أن قضيتهم واحدة.

كما يؤكد الشاعر أن اليهود لا يمكنهم طمس هوية الشعب العربي أو القضاء عليه، كما فعلت أمريكا بالهنود الحمر، فلا مكان لليهود على الأرض، فهم كما وعدنا الله عزوجل في تشتت، لمخالفتهم أمر ربهم وعصيان نبيهم، فيقول[١٩] :

لأنَّ مُوسَى قُطعَا يداه
ولم يَعُدْ يُتقِنُ فَنَّ السّحْرْ
لأن موسى كسرت عصاه
لم يعد بوسعه شَقَّ مياه البحر
لِأَنَّكُمْ لَسْتُم كَأَمْرِيكَا
وَلَسْنَا كَالهُنُودِ الحُمْرْ
فسوف تهلكون عن آخركم
فوق صحاري مصر

كما أنَّ استعمال الشاعر للضمير(نحن) جاء محاولة من الشاعر لتحريك الشعوب العربية وتعبئتها من جهة، وقذف الرعب، وزعزعة كيان الصهاينة من جهة أخرى، حيث يذكرهم بالألم الذين يعرفونه، فيقول[٢٠]:

نَحْنُ الذينَ نَرْسُمُ الخَرِيطَةْ
وَنَرْسُمُ السُفُوحَ وَالهِضَابْ
نَحْنُ الذينَ نَبْدَأُ المُحَاكَمَهْ
وَنَفْرِضُ الثَوابَ وَالعِقَابْ

ويرى الشاعر أن هذه الخريطة قد طمست معالمها، بعد المؤمرات التي كانت ضد العرب، ولكن كان الإنسان العربي أيضا من هؤلاء المتآمرين، فهذا ما جعل الشاعر يستعمل الضمير(نحن)، فهو لا يتخيل أن يتنازل أي عربي عن شبر واحد من أرضه، فكيف إذا تعلق الأمر بمعتقدات دينية.

ويلاحظ الباحث أن دلالة الضمير(أنتم)، جاء في صورتين، هما (واو الجماعة- كاف الخطاب المصحوبة بميم الجمع)، ولكن عندما يأتي الضمير (أنتم)، يلازمه الضمير (نحن)، لكي يجسد الصراع القائم بين اليهود والعرب.

ويمثل الضمير(أنتم) اليهود، الذين سلبوا الأرض، وانتهكوا الحرمات، حيث يقول الشاعر[٢١]:

لَقَدْ سَرَقْتُمْ وَطَنًا
فَصَفَّقَ العَالَمُ لِلمُغَامَرَةْ
صَادَرْتُمْ الأُلُوفَ مِنْ بُيُوتنَا
وَبِعْتُمْ الأُلُوَفَ مِنْ أَطْفَالنَا
فَصَفَّقَ العَالَمُ للسَّمَاسِرَةْ
سرقتم الزيت من الكنائس
سَرَقْتُمْ المَسيحَ مِنْ مَنْزِلِهِ في النَاصِرَهْ
فصفَّق العالم للمغامره
وتنصبون مأتمًا
إذا خطفنا طائرة..

والنداء من العناصر الإشارية الدالة على شخص ما أو شيء ما، لأننا نوظفه لاستدعاء شخص أو تنبيه، فالنداء"هو ضميمة اسمية تشير إلى مخاطب لتنبيه أو استدعائه"[٢٢]، والنداء لا يفهم إلا إذا اتضح المرجع الذي يشير إليه في الخطاب، ونجد نزار في قصيدة (منشورات فدائية) يستخدم هذه الضمائر وتداولها في النص انعكاسا لحبه الشديد للوطن وعشقه للأرض وإيمانه بالقضية، الأمر الذي انعكس على مسيرة الشاعر نفسه بين مرحلتين، الحب والرومانسية والوطن والقضية، فنجده يقول[٢٣] :

يا وطني الحزين
حَوّلْتَني بِلَحْظَة
مِنْ شَاعِرٍ يَكْتُبُ شِعْرَ الحُبِّ وَالحَنِينْ
لِشَاعِرٍ يَكْتُبُ بالسِكِّينْ.

كما تكررت أداة النداء (يا)، لتدل على غضب تسعين مليونًا من الأعراب، غاضبون ويريدون الثأر، فيقول[٢٤]:

تسعون مليونا من الأعراب
خلف الأفق غاضبون
يا ويلكم من ثأرهم
يوم من القمقم يطلعون

ويرى الباحث أن الإشاريات أسهمت في بناء موقف الشاعر تجاه القضية الفلسطنية، فاستخدام الضمير (نحن) بيّن لنا مدى السخط على الساسة والقادة الذين وهنوا واستكانوا وهانت عليهم أرضهم ومقدساتهم، كما بيّن أيضًا أن القضية الفلسطنية قضية كل عربي، لا فرق فيها بين مصري وتونسي وسعودي وفلسطني، فالقضية تشمل كل إنسان عربي غيور على وطنه، وهكذا جاء تداول الإشاريات الشخصية (أنا) و(أنتم) و(نحن) ... على مدار القصيدة ليؤكد وجهة نظر الشاعر تجاه قضيته القومية.

ثانيًا الإشاريات الزمانية :

وهي الملفوظات التي تدل على زمان يحدده السياق، وذلك بالقياس إلى زمان التلفظ الذي هو مركز الإشارة الزمانية في القول، ويفسرها البعض بأنها " المحددات الزمانية التي تربط عناصر الخطاب (المتكلم والمخاطب) بزمن الحدث اللغوي، أو هي الألفاظ الدالة على لحظة التلفظ، أو هي التي تحيل على زمان ما في الخطاب، فهي كلمات تدل على زمان يحدده السياق بالقياس إلى زمان التكلّم، فزمان الكلام هو مركز الإشارة الزمانية في الكلام"[٢٥]، فإذا لم يعرف زمان التكلّم أو مركز الإشارة الزمانية التبس الأمر على السامع أو القارئ [٢٦].

وتتجلى الإشاريات الزمانية في الألفاظ الدالة على الزمان(لحظة – الآن – بعد – ساعة – ...الخ)، وتعدّ لحظة التلفظ المرجع، فعلى المرسل إليه أن يدرك لحظة التلفظ فيتخذها مرجعًا يحيل عليه، ويؤول مكونات التلفظ اللغوية بناءً على معرفتها، ومثل لذلك الشهري بقوله "سأعود بعد ساعة" ويرى أنه لكي يبنى المرسل إليه توقعه لا بد من معرفة لحظة التلفظ بالخطاب، ويتضح ذلك جليا في خطابات الإعلانات التجارية.[٢٧]

والإشاريات الزمانية ثلاثية الأبعاد، ما بين حاضر وماض ومستقبل، وزمان التلفظ هو دوما مركز الإشارة الزمانية، وقد تستغرق الإحالة إلى الزمن المدة الزمنية، كلها كأن يقال اليوم الاثنين، وقد تستغرق مدة محددة من الزمان فلا تستوعبه كله، كأن يُقال ضرب زيد عمرا يوم الخميس، فالضرب يستغرق جزء من اليوم، وقد يتسع مدى

بعض العناصر الإشارية إلى الزمان، فيتجاوز الزمان المحدد له عرفا إلى زمان أوسع.[٢٨]

وتتشكل القصيدة من سبعة وعشرين مقطعًا، يجمعها خيط زماني يدل على الحركية والتجديد، بما يناسب طموح الشاعر الذي يصبو إلى تجاوز الواقع العربي الذي تخيم عليه سكونية مميتة قي ظل الفاجعة والسقوط المتواتر للشرف والسيادة.

أولا الزمن الماضي ودلالاته :

واستخدم الشاعر الفعل الماضي لكي يخدم موقفه الشعري، فنجد في المقطع الأول دلالة واضحة على التقرير والإثبات، ويؤكد نزار على أن العربي يرتبط بوطنه وأرضه منذ فجر التاريخ، حيث أصبح مرتبطًا ومندمجا بتاريخه ووجدانه، ويلاحظ الباحث في المقطع الثالث، أن الشاعر كان يريد أن ينوه العدو لقيمة العرب، وإنهم لا يستطيعون أن يطمسوا شخصية العربي، فيقول[٢٩]:

لأَنَّ مُوسَى قُطِعَتْ يَدَاهْ
وَلَمْ يَعُدْ يَتْقِنُ فَنَّ السِّحْرْ
لأَنَّ مُوسَى كُسِرَتْ عَصَاهْ
وَلَمْ يَعُدْ بِوسْعِهِ
شَقَّ مِيَاهَ البَحْرْ

ونجد الشاعر في بعض المقاطع، يجعل المضارع يؤدي دلالة الفعل الماضي إذا سبق بـــ(كان) أو إحدى أخواتها، مثل قوله[٣٠] :

ظَلَّ الفلسطينيُّ أعوامًا على الأبواب
يَشْحَذُ خُبْز العدلِ من موائدِ الذئاب
ويشتكي عذابه للواحد التوَّاب
وعندما..
أخرجَ من إسطبله حصانه
وزيت البارودة الملقاة في السرداب
أصبح في مقدوره
أن يبدأ الحساب..

ونجد في هذا المقطع، أن الفعل المضارع (يشحذ–ويشتكي) وقع في خبر(ظل)، التي تفيد التحقق من طول النهار، وعليه فإن مركب (ظل) يدل على الماضي المستمر، فالغاية من استعمال الشاعر لدلالة الماضي، هي إبراز الموقف الشعري وخدمة الهدف العام من الإرسالية، وذلك بالرجوع إلى تاريخ ارتباط العربي بأرضه، وبيان ما يكابده من أجل الحفاظ عليها، ناهيك عن الدلالة العميقة التي يضفيها التناص الديني للمقطع السابق.

ثانيا الزمن المستقبلي ودلالاته :

يرتبط الزمن بالمبدع، فدلالة الزمن تدل على استشراف الحدث في المستقبل، دون الاعتماد على دوافع ذاتية أو شخصية، وسوف يقف الباحث على تتبع دلالة الحاضر المستمر، بصيغ الماضي والمضارع والأمر.

ويرى الباحث أنَّ الماضي عند نزار يدل على المستقبل إذا كان في مقام دعاء أو شرط، على نحو قوله[٣١]:

لَا تَسْكَرُوا بِالنَصْرْ
إذَا قَتَلْتُمْ خَالِدًا
فَسَوْفَ يَأتِي عَمْرُو
وَإن سَحَقْتُمْ وَرْدَةً
فَسَوْف يَبْقَى العِطْرْ..

ويجد الباحث أن دلالة الفعل الماضي في هذا المقام أدى معنى الاستقبال لتوقع غرض الوعيد الذي لا يكون إلا مستقبلاً، لأن القتل والسحق لم يتحقق، فالفعل في كليهما أصبح رهين الشرط (إذا).

وعلى نحو قوله أيضًا[٣٢] :

يَا آلَ إسْرَائيلَ، لَا يَأْخُذْكُمْ الغُرُورْ
عقارِبُ السَّاعَات إن تَوقفتْ
لا بُدَّ أَن تدورْ..
إنَّ اغْتِصَاب الأرض لا يُخِيفُنا
فالرِّيشُ قد يسقطُ من أجنحة النسور
والعطش الطويل لا يُخيفنا

فالماء يبقى دائما في باطن الصخور
هزمتم الجيوش.. إلّا أنّكم لم تهزموا الشُعُور
قطعتم الأشجار من رؤُوسها
وظلت الجذور..

ومما يدل على الزمن المستقبلي كذلك اقتران المضارع ل(لام النهي) نحو قوله : لا تسكروا بالنصر(م٢)، لا يأخذكم الغرور(م٨)، وذلك وراء مقصدية الإنذار والوعيد، وقد اقترن المضارع ب (لا النافية) الدالة على المستقبل المتجدد القريب في قوله[٣٣]:

مَا بَيْنَنَا.. وبينكُمْ.. لَا ينتهي بعَامْ
لَا ينتهي بخمسةٍ، أو عشرةٍ، ولا بألفِ عام
طويلة معارك التحرير كالصيام
ونحن باقون على صدروكم كالنقش في الرخام
باقون في صوت المزاريب.. وفي أجنحة الحمام
باقون في ذاكرةِ الشمس، وفي دفتر الأيام
باقون في شِعْرِ امريء القيس، وفي شعر أبي تمام
باقون في شِفاهِ مَن نُحبُّهم

ويرى الباحث أن الشاعر يستخدم الزمن، حيث تنوعت دلالاته بين الماضي والحاضر والمستقبل، فهذه البنى الفعلية لها حمولات تعكس موقفه وموقف الأمة العربية مما حدث، فالزمن عنده يحمل الكثير من الأحداث؛ التي أثارت غضب الأمة العربية، ليتحول من الزمن الذي يحمل الحزن والبؤس، إلى الزمن المستقبلي الذي يحمل التحدي والأمل، وجاء تداول الإشاريات الزمانية في القصيدة ليؤكد ذلك.

ثالثا الإشاريات المكانية :-

تعدُّ الإشاريات المكانية من بين العناصر اللغوية التي يقتضي الإلمام بمعناها معرفة سياق التلفظ، لأن مرجعها غير ثابت ولا محدد، ويكمن دورها في الإحالة على مرجع مكاني، وهذه العناصر الإشارية " تعتمد في استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان المتكلم وقت التكلم، أو على مكان آخر معروف للمخاطب أو السامع، ويكون لتحديد المكان أثره في اختيار العناصر التي تشير إليه قربًا أو بعدًا أو جهة، ولا نستطيع

تفسير هذه الألفاظ الإشارية إلا إذا وقفنا على ما تشير إليه بالقياس إلى مركز الإشارة إلى المكان، فهي تعتمد على السياق المادي المباشر الذي قيلت فيه."[٣٤]

ويجب علينا أن ننبه أن أكثر الإشاريات المكانية وضوحًا هي كلمات الإشارة، نحو: هذا، هذه، ذاك، ذلك، .. وغيرها من الإشاريات الدالة على قريب أو بعيد، وكذلك هنا وهنالك، وسائر ظروف المكان، نحو: فوق، تحت، أمام، خلف، شمال... الخ، فكلها عناصر إشارية لا يتحدد معناها إلا بمعرفة موقع المتكلم واتجاهه، كما أن تحديد مرجع العنصر المكاني مرتكز على تداولية الخطاب.

١ – الإشاريات المكانية الظرفية:

وهذا النوع من الإشاريات يشار بها إلى مكان لا يتحدد إلا بمعرفة موقع المتكلم واتجاهه، ومن ظروف المكان كلمة(فوق) في قوله[٣٥]:

لأن موسى قُطعت يداه
ولم يَعدْ يُتقنُ فنَّ السِّحر
لأن مُوسى كُسِرت عصاه
ولم يعُدْ بوسعه
شقَّ مياه البحر
لأَنَّكُمْ لَسْتُم كَأَمْرِيكَا
وَلَسْنَا كَالهُنُودِ الحُمْرْ
فَسَوْفَ تَهْلَكُونَ عَنْ آخِرِكُمْ
فَوْقَ صَحَارِي مِصْرْ

كما تكررت كلمة (فوق) أيضا في قوله[٣٦]:

نَأْتِي..
بِكُوفِيَّاتِنَا البَيْضَاءِ والسَوداءْ
نَرْسُمُ فَوْقَ جِلْدِكُمْ
إشارة الفداء
من رحم الأيام نأتي كانبثاق الماء
من خيمة الذل التي يعلُكها الهواء

وذكر نزار أيضا الظرف (خلف) حينما قال[٣٧]:

فما لكم خبز هنا.. ولا لكم حضور
من باب كل جامع
من خلف كل منبر مكسور
سَيَخْرُجُ الحَجَّاجُ ذَاتَ لَيلَةٍ
وَيَخْرُجُ المَنْصُورْ.

وتكرر أيضا في قوله[٣٨]:

تسعون مليونا من الأعراب
خلف الأفق غاضبون
يا ويلكم من ثأرهم
يوم من القمقم يطلعون

ويلاحظ الباحث كثرة تكرار حروف الجر الدالة على الظروف المكانية، فقد كرر حرف الجر (مِن) ٣٩ مرة في القصيدة، لتدل مع قرائنها على المفاجأة للعدو، وقد ورد هذا الحرف مستندة للفعل(سيخرج) على نحو قول الشاعر[٣٩]:

مِنْ بَابِ كُلِّ جَامِعِ
مِنْ عَلْفِ كُلِّ مَنْبَرٍ مَكْسُورْ

وجاءت أيضا مستندة للفعل (أطلع) في قوله[٤٠] :

أطلع كل ليلة..
من فسحة الدار.. ومن مقابض الأبواب
من ورق التوت.. ومن شجيرة اللبلاب
من بركة الدار
ومن ثرثرة المزراب..
أَطلع من صوت أبي..

وجاءت مضافة للظرف(هنا) في قوله[٤١]:

محاصرون أنتم بالحقدِ والكراهية
فمن هنا.. جيش أبي عبيدة
ومن هنا معاوية

سلامكم ممزق

وبيتكم مطوق

أمَّا حرف الجر(في) فقد ورد في الخطاب بشكل لافت للنظر، فقد تكررت أكثر من ٨٥ مرة، حيث إنها شملت كل ما يحيط بالعربي من أماكن (أرض، ومسجد، وحارات، وشوارع، وأبواب، وغرف)، فخطاب نزار خطاب مكان، فهو يُريد أن يُثبت أن الأرض لدولة لفلسطين وليس لاسرائيل الحق فيها، كما يبرهن ويؤكد أن الشعب العربي حريصا على استرجاع ما سُلب منه.

فقد ورد مقترنا بصيغة اسم الفاعل الدال على الاستمرار والاستقبال في كلمة (باقون)، حيث يقول الشاعر[٤٢]:

باقون في آذارها..

باقون في نيسانها..

باقون كالحفر على صلبانها

باقون في نبيها الكريم، في قُرآنها

وفي الوصايا العشر

إن هذا التكرر المطرد للفظة (باقون) أدى فائدة التحدي والإصرار، وإثبات الأرض لأهلها،إذ لم يكن هذا التكرار هدرًا وحشوا، فقام بتكرار هذا المؤشر للربط بين البنية السطحية المحيلة إلى غرض معين من أغراض الكلام وهو التأكيد الذي يصل في آخر مراتبه إلى الإقناع، لا سيما تكرار الوحدة المعجمية نفسها في أول السطر كما هو وارد في القصيدة، وهذا النوع من التكرار يفرض حضوره على المتلقي ويوجّه دلالة السياق بوصفه مفتاحًا يمكن اختزاله في موقع ثابت، فتكرار باقون في أول العبارة وهو ما يسمى بتكرار الاستهلال جعلها مركزا دلاليًا تتفرع عنه دلالات لاحقة كلها ترمي إلى تأكيد حق العربي في البقاء على أرضه محافظًا على هويته.

وورد حرف الجر بصيغة اسم المفعول (مبثوثون) في قوله[٤٣]:

فنحن مبثوثون في الريح.. وفي الماء.. وفي النبات

ونحن معجونون بالألوان والأصوات

لن تُفلتوا

لن تفلتوا

فكل بيتٍ فيه بندقيه

من ضفةً النيل إلى الفرات..

٢- مؤشرات المكان في القصيدة:

فالقصيدة ذات دلالة مكانية، والشاعر يُشير لذلك من خلال كلمة (جدران إسرائيل)، كأنه يريد أن يقول: إن إسرائيل يحتمون بذلك الجدار، ولكن سيأتي اليوم الذي تنهار فيه هذه الجدر بالمقاومة والفداء، والجدار في هذا المقام يوحي بالجبن، والتستر، وطمس الحقيقة، ومن ينعم النظر سوف يجد أن القصيدة مليئة بالإشاريات المكانية، ولكن جميعها يوحي بالمناطق المسلوبة من العرب مثل :(فلسطين، والقدس، وضفة الأردن، والجولان، وصحاري مصر)، فهذه المناطق هزّت كل عربي، فعبر عنها نزار بطريقته الخاصة، فتوظيف هذه الأماكن له دلالة واضحة، على نحو قول الشاعر[٤٤]:

وانتقلت(هانوي) من مكانها..

وانتقلت (فيتنام)..

وقال أيضا[٤٥]:

ففي رُبَى السودان قد ماج الشقيق الأحمر

وفي صحاري ليبيا

أورق غصن أخضر

وأراد نزار من خلال ذكر هذه الأمكنة (هانوي، فيتنام، السودان، صحاري ليبيا) أن يذكر الصهاينة بالبطولات الخالدة التي مجدها التاريخ، وأن مآلهم هو مآل فرنسا بالهند التي لاقت شر هزيمة، فدلالة رموز الأمكنة هي التحدي والبطولة والشموخ والكبرياء .

ووظف الشاعر الفعل (يقبرن) ليدل على المقبرة، فقد أراد الشاعر أن يجعل من المتلقي أن يشتم رائحة الموتى والجثث، فيقول[٤٦]:

نِسَاؤنا..

يرسُمنَ أحزان فلسطين على دمع الشجر

يُقبرن أطفال فلسطين بوجدان البشر

نساؤنا..

يحملن أحجار فلسطين إلى أرض القمر

واشار نزار أيضا إلى بعض الأمكنة مثل (غرف التحقيق، السجون)، وأراد من خلال ذلك ذكر ما تعوّد عليه الشعب الفلسطيني، حيث يلقون في هذه الغرف كلّ أنواع العذاب، وفي السجون يعيش الفلسطيني في عزلة ومعاناة، وذكر الشاعر هذا الوصف لكي يُثير العرب تجاه القضية الفلسطنية، فيقول الشاعر[٤٧]:

للأرض.. للحارات.. للأبواب.. أولاد
سيكبرون..
وهؤلاء كلهم.. تجمعوا منذ ثلاثين سنه
في غرف التحقيق.. في مراكز البوليس.. في
السجون
تجمعوا كالدمع في العيون
في أي لحظة
من كل أبواب فلسطين يدخلون..

ويرى الباحث أن نزار نجح في توظيف الإشاريات المكانية، حيث إنها كانت ركنا في الخطاب لارتباطها بالموقف الشعري، حيث تعتمد الإشاريات المكانية في استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان المتكلم وقت التكلم، واتضح ذلك بشكل مباشر في القصيدة.

الخاتمة :

حاولت الوقوف في هذا البحث الذي خصصته لدارسة (تداولية الإشارة عند نزار قباني " قصيدة منشورات فدائية على جدران إسرائيل أنموذجا) فوقفت على الإشاريات، من خلا ل معرفة أصلها اللغوي، ودلالاتها الاصطلاحية لدى النقا د المعاصرين ...، مع معرفة أهم أصنافها، سواء أكانت، شخصية، أو زمانية، أو مكانية، مستقرئا ما تيسَّرت لي مطالعته من الدارسات النقدية في ديوان شعرنا العربي القديم بعامة، منتقلا من محاولة التنظير إلى التطبيق على قصيدة (منشورات فدائية على جدران إسرائيل أنموذجا)، وكانت محصلة جهدي المتواضع تتجسد فيما يلي :

١- يشكل الشعر لدى نزار مادة دسمة للدراسات التداولية، لما فيه من قضايا لغوية وسياقية، فهو يحمل الكثير من القيم الاجتماعية التي جعلته قريبا من

واقع الحياة اليومية، بغض النظر عما تزدحم به القصيدة من صنوف المجاز المختلفة، التي تقود إلى فهم أعمق للتجربة.

٢- تعد الإشاريات علامات لغوية،لا يتحدد مرجعها إلا في سياق الخطاب، فالإشاريات تعمل على تفسير الملفوظات، وتحديد مجالها التبليغي في الخطاب عن طريق عناصر إشارية تحتويها تلك الملفوظات داخل سياقها المادي الذي قيلت فيه.

٣- كشفت الإشاريات الشخصية البعد التبليغي بارتباط الضمائر فيه مع السياق الكلامي، حيث أحالت على طرفي التخاطب حسب موضع (المتكلم والسامع)، فكل منهما هو محدد المرجع ومطابق للواقع، وبالتالي تحققت العلامة الوجودية بين العلامة الإشارية وما دلت عليه.

٤- تنوعت استعمالات الإشاريات الزمانية بكثرة، مثل: يوم، عام، دهر، كما أن الزمن النحوي الذي استعمله الشاعر في خطابه كان متنوعًا بين(الماضي والحاضر والمستقبل)، وهو مطابق للزمان الكوني، وغير متناقض مع سياق الخطاب.

٥- كما وردت الإشاريات المكانية في القصيدة، وكانت من خلال استعمال ظروف المكان: فوق، تحت، هنا، هناك، كما وظف الكثير من أسماء البلدان مثل: فلسطين، والقدس، وضفة الأردن، والجولان، وصحاري مصر.

الهوامش:

[١] – ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، مج٣، ص٤٣١، مادة شور

[٢] – ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق/ عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت، ج٣، ص٢٦٢ مادة شور

[٣] – نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب دراسة معجمية، جدار للكتاب العالمي، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٩، ص٨٦

[٤] – أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٨م، ط١، مج٢، ص١٢٦

[٥] – جورج يول،التداولية، ترجمة/ قصي العتابي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ٢٠١٠م، ص١٧

[٦] – محمد عبد السلام، آفاق التداولية في النصوص النثرية الكاملة(أعمال علي الجارم نموذجا)، دار النابغة للنشر والتوزيع، مصر، ط١، ٢٠١٥، ص١٢٥

[٧] – روبرت دي بورجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة/ تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٣٢٠

[٨] – الآزهر الزناد، نسيج النص، بحث فيما يكون الملفوظ نصًا، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٣، ص١١٥–١١٦

[٩] – جورج يول، التداولية، المرجع السابق، ص٣٩

[١٠] – محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، د.ط، ص١٥–١٦

[١١] – محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، المرجع السابق، ص١٦

[١٢] – الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة/ محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ط)،(د.ت)، ص٤٠–٤١

[١٣] – المرجع السابق، ص١٧

[١٤] – ينظر : جان سيرفوني، الملفوظية، ترجمة / قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، ١٩٩٨م، ص٢٧

[١٥] – نزار بن توفيق قباني، اسم له معنى خاص، ورنين متميز في آذان الناطقين باللغة العربية وكل قارئيها، ونزار شاعر سوري لكنه بالتأكيد يخص الوجدان العربي كله، ولد بدمشق – سورية، وتعلم بالكلية العلمية الوطنية بها، وفيها تأثر بالشاعر خليل مردم بك الذي ربطه بالشعر منذ اللحظة الأولى، بدأت رحلته مع الشعر وهو في السادسة عشر من عمره، تخرج بكلية الحقوق بالجامعة السورية عام ١٩٤٤م، ولكنه لم يمارس المحاماة أبدًا، بل عمل مباشرة بالسلك الدبلوماسي، فألحق بسفارة بلاده في القاهرة، حيث توطدت علاقته مع فنانيها وأدبائها، واستمر في وظيفته تلك منتقلًا في البلدان المختلفة حتى استقال عام ١٩٦٦م، وهو بدرجة مستشار ليؤسس دارًا للنشر تحمل اسمه، أصدر نحو خمس وثلاثين مجموعة شعرية، وكان ديوانه الأول(قالت لي السمراء) الصادر عام ١٩٤٤م، زلزالا شعريًا ضرب أساسيات المضمون في القصيدة العربية، وهو ما أشار إليه عبدالعزيز المقالح حينما قال: إن تجربة نزار قباني الشعرية تتسم منذ بداياته الأولى بالتجديد والانعطاف نحو الجديد، وهي تجربة لها خصوصيتها سواء في بنائها الجمالي الفني وقدرتها التعبيرية لغة وشكلًا، أو في طريقة الاستجابة الموضوعية للواقع بكل انعكاساته المضمونية وتأثيراته المختلفة، ولقد شكّل نزار قباني جزءًا مهمًا من شعرنا المعاصر، وعلامة من علاماته عبر خمسين عامًا متفقًا على ذلك المؤيدون والمعارضون لشعره، فقد أحدث هزة ما في القصيدة العربية، وظل موضوع جدل لا ينتهي بين عدة أجيال من النقاد والقراء على اختلاف أعمارهم، ويعدُّ من الشعراء القلائل الذين جمعوا في مسيرتهم الشعرية بين النثر والشعر، كما تناول قضايا الشعر المطروحة على ساحتنا الشعرية من المدح والغزل ....، ينظر: كامل سلمان الجبوري، معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م.، المجلد السادس، ص٣٥٦، عبدالعزيز المقالح، الشعر بين الرؤيا والتشكيل، دار طلاس، دمشق، ١٩٨١م، ص١٧٠

[١٦] – ينظر: عبدالهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنـــان، ط١، ١٠٠٤م، ص٨٢

[١٧] – نزار قباني، الأعمال الشعرية والسياسية، المجموعة الكاملة، منشورات نزار قباني، بيروت – باريس، ط١٧، ٢٠٠٧، ج٣، ص٦٩٩

[١٨] – نزار قباني، الأعمال الشعرية والسياسية، المرجع السابق، ج٣، ص٦٩٩

[١٩] – نفسه، م(٣)

[٢٠] – السابق، م (٢٢)

[٢١] – نفسه، م (١١)

[٢٢] – محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص١٩

[٢٣] – نزار قباني، م (١٥)

[٢٤] – نفسه، م(١٩)

[٢٥] – محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص٢٠

[٢٦] – فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة / سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، ط١، ١٩٨٧م، ص٤٢

[٢٧] – عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب،المرجع السابق، ص٨٣

[٢٨] – نفسه، ص٧٤

[٢٩] – نزار قباني، الأعمال الشعرية والسياسية، المرجع السابق، م (٣)

[٣٠] – نفسه، م (٢١)

[٣١] – نفسه، م(٢)

[٣٢] – نفسه، م(٨)

[٣٣] – نفسه، م(١٣)

[٣٤] – عبدالهاديين ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص٨٥

[٣٥] – نزار قباني، الأعمال الشعرية والسياسية، المرجع السابق، م(٣)

[٣٦] – نفسه، م(٢٧)

[٣٧] – نفسه، م(٩)

[٣٨] – نفسه، م(١٩)

[٣٩] – نفسه، م(٩)

[٤٠] – نفسه، م(٢٥)

[٤١] – نفسه، م(٢٦)

[٤٢] – نفسه،م (١)

[٤٣] – نفسه، م(٥)

[٤٤] – نفسه، م(٢٣)

[٤٥] – نفسه، م(٢٤)

[٤٦] – نفسه، م(١٠)

[٤٧] – نفسه، م (١٦)

قائمة المصادر والمراجع :

١- أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٨م

٢- الآزهر الزناد، نسيج النص، بحث فيما يكون الملفوظ نصًا، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٣.

٣- جان سيرفوني، الملفوظية، ترجمة / قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، ١٩٩٨م.

٤- جورج يول،التداولية، ترجمة/ قصي العتابي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.

٥- الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة/ محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ط)،(د.ت)،

٦- روبرت دي بورجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة/ تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م.

٧- عبدالعزيز المقالح، الشعر بين الرؤيا والتشكيل، دار طلاس، دمشق، ١٩٨١م

٨- عبدالهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط١، ١٠٠٤م.

٩- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق/ عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت.

١٠- فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة / سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، ط١، ١٩٨٧م.

١١- كامل سلمان الجبوري، معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م

١٢- محمد عبد السلام، آفاق التداولية في النصوص النثرية الكاملة(أعمال علي الجارم نموذجا)، دار النابغة للنشر والتوزيع، مصر، ط١، ٢٠١٥.

١٣- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، د.ط.

١٤- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

١٥- نزار قباني، الأعمال الشعرية والسياسية، المجموعة الكاملة، منشورات نزار قباني، بيروت – باريس، ط١٧، ٢٠٠٧.

١٦- نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب دراسة معجمية، جدار للكتاب العالمي، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٩.